العرب
الثلاثاء 2020/01/07
السنة 42 العدد 11579

لوحات ما وراء الصمت من مدريد إلى المنامة

راشد دياب يجمع القيم والمعاني السودانية بين واقعية وتجريد

يتواصل حتى 15 فبراير القادم بمتحف البحرين بالمنامة المعرض الاستعادي "ما وراء الصمت" للفنان راشد دياب، الذي تنظمه هيئة البحرين للثقافة والآثار، وفيه يتوقّف المشاهد عند مراحل مهمة من حياة الفنان التشكيلي السوداني المخضرم في بلده وخارجه، ليستعيد من خلاله مراحل مفصلة من كل محطاته الفنية من نحت وتصميم وتشكيل ورسم.

النيل يتدفق ألوانا

امتداد صامت للصحراء

احتفاء تجريدي بالمرأة

زكي الصدير
كاتب سعودي

في مدينة ود مدني السودانية، بسخاء طبيعتها الأفريقية، وبكل سحرها وأساطيرها الشعبية، اختار الفنان السوداني راشد دياب ملامح تجربته الفنية الخاصة، فقد شكّل تعدّد النشاطات الفنية المتنوعة بهذه المدينة وأساليب تصوّر الفنانين الشعبيين للحياة البسيطة فيها هويته العامة، ومن ثمة برز تكوينه العالمي من مجموع الرؤى الإبداعية المتشكلة من إدراكه لثقافة وطنه ومعارفه.

وعبر امتداد الصحراء الصامت وألوان ضفاف نهر النيل المتدفق، ومن إلهام نسائها ومعاناتهنّ تداخلت كل هذه العوامل مع غربته في مدينة مدريد الإسبانية، حيث كان منتجه الإبداعي ثمرة تلاقي ثقافات وحضارات متعددة.

راشد دياب يسمع في المرأة صوت أمه وهو طفل، يسمعها وهي تقول له أنت فنان

يحمل راشد دياب هاجس الفنان التشكيلي وأسئلته التي لا يشبعها إلاّ اللون والشكل والظل، موطّنا أسراره وهويته في الألوان، في تجربة هي واقعية جدا بقدر ما هي تجريدية وعاطفية ومنسابة مثل جريان النيل في السودان.

وبعد غربته في إسبانيا عاد دياب إلى وطنه السودان حاملا معه طرائق شتى في التعبير الفني، لهذا نجده في محطته الأخيرة بمتحف البحرين بالمنامة منحازا للجمال في معرضه الشخصي الاستعادي "ما وراء الصمت".

منذ طفولته اتصل دياب بعالم الفنون والتشكيل، وتعوّدت يداه على اللعب بالطين؛ يصنع منه أشكالا مختلفة لينتقل من بعدها إلى الرسم بالرصاص على الورق والقماش، حتى اكتشف من بعدها سحر الألوان وقوتها والتي فتحت له أبوابا جديدة في الإبداع.

أحب دياب السودان وأحب بيئته الصحراوية الصامتة، فسافر في كل أنحاء البلاد ليختبر جمال ألوانه والأشكال التي فيه. ثم سافر إلى إسبانيا لإثراء تجاربه الإبداعية، وليعود مجددا إلى حضن وطنه مؤديا رسالته الجمالية والفنية.

وفي معرضه الاستعادي "ما وراء الصمت" يكتشف المتابع تفرّد هويته الفنية التي أسّسها على مبدأ تحويل أحد العناصر الثقافية أو الاجتماعية إلى موضوع، ومن ثم تحويل الموضوع إلى ذات، ومن ثم تحويل الذات إلى رؤية عبر الخيال والجمال، لأن الجمال بالنسبة إليه حقيقة، أما اللوحة فتعني له خلاصة تجربة الإنسان، وهي تتجسّد في التأمل الذي هو صفة للشعوب القوية.

مصادر إلهام الفنان السوداني راشد دياب الفنية تأتي من ثلاثة أشياء: من المرأة التي وجدها في السودان موضوعا محفّزا لمخيلته، بانحناءاته وتموّجاته وألوانه، فهو يتمثّل المرأة كأمه التي احتضنته، وهو الذي يقول عنها "أسمع في المرأة صوت أمي وأنا طفل وهي تقول لي أنت فنان"، ثم النيل المستمر بعطائه وتدفقه، وأخيرا الصحراء التي عشقها ووجد فيها ذلك الامتداد والصمت الجميل.

وعن تجربته يقول مواطنه الفنان التشكيلي إبراهيم الصلحي "راشد دياب فنان سوداني موهوب في التلوين والرسم والطباعة، وقد تلقّى تعليما أكاديميا مكثفا داخل وخارج السودان، ويُعرف أيضا كمثقف عميق الإدراك بثقافة السودان وشعبه.

إنه يساعد الفنانين السودانيين المبدعين بمختلف أعمارهم، مؤمّلا في إعادة إحياء الحركة الفنية التي أهملت في الخرطوم منذ سنين، وهو من الذين إذا فكّروا في شيء فعلوه، لأنه فنان ديناميكي مفكر وحر. إنه بقدراته ورؤيته الثاقبة وإصراره يدرك طيفا يمكن إعادة بثّ الوعي لبلد خلد في سبات عميق منذ زمن طويل".

يمكن التعرّف على تجربة راشد دياب التشكيلية الطويلة من خلال ثلاث مراحل فنية تشكّل عوالمه منذ انطلاقته حتى يومنا هذا، وما يحمل فيها من أسئلة فنية مبتكرة وعميقة.

وقد اختار دياب في المرحلة الأولى (1983–1986)، والتي شكّلت بداياته، تناول تصاميم الخط العربي مع آيات القرآن على الجانب الأعلى من اللوحة، حيث يتميز استعماله للخط العربي بأصالته المكتسبة من فنون مدارس تعليم القرآن في السودان، وقد تأثر في ذلك بمجموعة فنانين سودانيين.

وتأثر في المرحلة الثانية (1986–1990) بالأعمال التي كانت شائعة في عصر النهضة، خاصة إنتاج الأعمال الزيتية، حيث تعلم هذه التقنية التي تعتمد على غمر المساحات اللونية بصور متواترة في مرحلة إنجاز اللوحة، وأثر الضوء والظل في المساحات الكبيرة مع احتفاظه بالأشكال المنجزة والألوان من المرحلة السابقة. وتميزت هذه المرحلة بتحوّل أعماله إلى درجة عالية من النضج والإحساس الراقي، خاصة في مجموعة "ذكريات الطائر المهاجر 1989" في الرجوع بالأحلام والذكريات إلى الزمن الماضي.

أما المرحلة الثالثة (1990–1993) فقد أسماها "فترة الشغف باللون"، حيث يقول عن هذه المرحلة "أحيانا تصبح علاقتي بالتقنيات وأساليب وأدوات الرسم مصدرا لإحساس غامر بالقلق، وأحيانا بالرضا. وأعمل بفكرة التجريب المستمر للتقنيات واكتشاف إمكانياتي في التعبير بحرية. وأعود مفتونا بالألوان التي تشكل أهم صفة في عملية إبداع اللوحة عندي. أنا لا أؤمن بالتصوّر الغربي لنجاح الفنان بالتزامه بطريقة أو أسلوب واحد يميزه طيلة حياته، فأنا أعتبر نفسي في حالة بحث وتغيير مستمرة، وأنتج ما يعجبني في اللحظة وبالأسلوب الذي أحبه. الفن عندي حالة إنسانية".

هذا وأصدرت هيئة البحرين للثقافة والآثار على هامش معرض "ما وراء الصمت" كتابا خاصا بالمعرض يوثق مراحل تكوّن تجربة الفنان راشد دياب، متوقفة عند دوره في تطوّر المجتمع السوداني ثقافيا واجتماعيا.

ويشمل الكتاب مجموعة واسعة من صور أعمال الفنان السوداني تمثل مختلف الفترات الزمنية في مسيرته الفنية.

الفن الملتزم في أوج يقظته

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

شهد لبنان في العام 2019 المنقضي نشاطا فنيا مميزا لم يختلف بوتيرته عن السنة السابقة في بلد اعتاد الأزمات وتمرّس على جعلها مكونا أساسيا من استمراريته.

تعددت المعارض التي جمعت عدة فنون في ساحة واحدة. غير أن ما يميزها عن المعارض السابقة هو من ناحية تصاعد حضور الفن اللبناني بالمقارنة مع السنوات الفائتة، ومن ناحية أخرى بروز خاصية النزوع إلى الخروج عن حدود المكان والزمان وصولا إلى أوج الانتفاضة الوجودية المتمثلة بالثورة اللبنانية على كل ما يحد من التعبير عن الذات الجماعية.

نذكر من الفنانين العارضين الفنان التشكيلي السوري محمد خياطة ومواطنه أحمد كليج، كما نذكر الفنانين اللبنانيين جورج مرعب وشيرمين يافي ولارا تابت ومازن خداج وندى صحناوي ومازن رفاعي، وخاصة حسان الصمد في عمل مركب رائع عرض فيه فصلا من فصول تدمير الإنسان للطبيعة اللبنانية عبر قتله لمخلوقاتها البرية ورميه جثثا هامدة تحت ضوء الشمس.

وإن كان من الممكن ذكر أربعة معارض فنية هي الأهم خلال السنة المنقضية، فالذاكرة تتوجّه إلى معرض الفنان بسام كيريللس ومعرض الفنان شوقي يوسف والفنانة جنان مكي باشو وفنان التجهيز محمود حجيج.

هؤلاء قدّموا معارض دامغة خرجت بحد ذاتها عن زمنها لتطرح أسئلة وتجيب على أخرى، ولكي تصدم المتلقي فتحقق تطورا ما في ذهنه.

كما قدّم الفنان والباحث محمود حجيج في غاليري "أجيال" مجموعة أعمال فوتوغرافية تحت عنوان "غير موثّق"، حيث هدف المعرض إلى توثيق الحدود التي تفصل الأراضي اللبنانية عن السورية، في مهمة "فردية" ووطنية شائكة أخذت على عاتقها الترسيم الخيالي/ الفني للحدود غير المرئية وغير الموثقة حتى اليوم للبنان من شماله إلى جنوبه.

معرض طرح سؤالا تتشعّب منه أسئلة أخرى: ما هي "المخلوقات الجيوبوليتيكية" التي يفكّر في تخليقها الحكام إرضاء لجشعهم ومرآة لجبروتهم وتقنياتهم المتقدّمة؟ ماذا سيترتب على هذا التخليق؟ كوارث متتالية كما حدث في رواية "فرانكشتاين"؟ وهل سيكون مصير هذه المخلوقات الجيوبوليتيكية ومصير صانعيها شبيهين بمصير الطرفين في الرواية؟ مصير الطبيب المتمرّس فيكتور فرانكشتاين كان الموت، وهو يستجدي الغفران من مخلوقه المشوّه الذي ارتعب حينما اكتشف تشوّهه، فتتالت أفعاله نتيجة لهذا الاكتشاف.

أما معرض الفنان شوقي "تسعة صباحات وثلاث عشرة ليلة طيبة" فاستعرض فيه كائنات بشرية تختبر علاقتها بالعالم الخارجي الذي قُذفت إليه، فنجدها في لوحاته تتمرّى أمام أرواحها وتتفاعل معها في آن واحد، تجريدية في صلب التشكيل. في هذا المعرض لم تكن أجساد الفنان إلاّ مجموعة "حوادث" تجمعت فرادى في لوحات منفصلة.

وقدّمت الفنانة جنان مكي بشو بدورها معرضا ساحرا تحت عنوان "مواسم لا نهائية من الهجرة"، وهي التي عرضت في معرض سابق مجسمات معدنية للمسلحين المرتزقة الذين اجتاحوا منطقة الشرق الأوسط من دبابات، ورايات سوداء، وغرق مراكب، وأقفاص ودرجات نارية.. إلخ.

اختلطت فيها ملامح الجلاد بالضحية ربما وفقا لنظرية المفكر الفرنسي المعاصر ميشال أونفري المتحدثة عن العدوانية المتأصلة والقادرة على جعل الضحية جلادا حين تسنح لها الفرصة.

أما في معرضها للعام 2019، فقد شملت نظرة الفنانة الكوكب كله مع استمرارها على نهج تطويع المواد "العنيفة" مستخدمة الخردة والحديد، وبقايا السيارات لتصقلها وتقولبها في أجساد وهيئات مشكلة ومصهورة وملحومة بعنف النار والمطرقة لتعبّر عن ذاتها (أي عن ذات المعروضات) قبل أن تعبّر عن علاقتها بالعالم المحيط.

أما الفنان بسام كيريللس فقدّم معرضا لا مبالغة في أن نسميه معرضا كونيا. أقام فيه الفنان حوارا وتقاطعا ما بين عوالم افتراضية يصبح فيها الإنسان نقطة التواصل وجسر العبور المفكّك تشكيليا بتقنية النحت الغائر والنحت النافر.

تمكن عبر منحوتاته من أن يحقق بصريا مفهوم "العولمة" الذي لاكته الألسن والكتابات والأكاذيب الكثيرة/ ليصبح إنسانه شبيها بإنسان ليوناردو دافينشي ومحورا للعالم النابض.

ومع انطلاق الثورة اللبنانية اهتز لبنان فنيا. اهتز بمعنى أنه أخرج أثقاله في أعمال فنية متنوعة جدا بالوسائط والتعبير والتقديم شارك في إخراجها فنانون متمرّسون وهواة من جميع الأعمار والبيئات الاجتماعية.

نذكر من تلك الحوادث الفنية: معرضا في صالة "جانين ربيز" خصّص حصريا لثورة 17 أكتوبر. فأمام موجة انكفاء المعارض التشكيلية في بيروت لحظة اندلاع الثورة قرّرت الصالة أن تواكب نبض الشارع وأن تتلقّف الأعمال الفنية المتنوعة، تلك التي اشتغلت بهدوء المراسم الفنية وتلك التي ظهرت خصيصا على شبكات التواصل الاجتماعي أو على جدران الساحات عبر صور فوتوغرافية تميزت بفنية ما، وضعتها على جدران الصالة بين الأعمال التشكيلية والنحتية لتعطي نفسا حيويا يخاطب الآن كل ما هو خارج جدران الصالة.

> مع انطلاق الثورة اللبنانية اهتز لبنان فنيا، كي يخرج أثقاله في أعمال متنوعة شارك في إخراجها فنانون متمرّسون وهواة

ونذكر أيضا، وفي السياق نفسه، معرضا للصور الفوتوغرافية الذي أقيم قرب السينما القديمة أو مبنى البيضة أو الدوم في وسط بيروت، ليكون دليلا قاطعا على بزوغ تلك المرحلة الانتقالية ما بين الحرب والسلم الحقيقي الذي ارتسمت ملامحه مؤخرا في الساحات اللبنانية كافة.

أعمال فنية بمجملها أثبتت مرة أخرى أن الفن لصيق المزاج والفكر والعاطفة عندما يهتزّ الواقع المعيش. هكذا يصبح الفن من حيث لا يدري أو لا يدري فنا ملتزما من الطراز الأول.